الفصل الأول

الشك المنهجي وتأسيس عصر ديني جديد

1. نقطة البدء في افتتاح عصر ديني جديد.
2. الذات المفكرة.
3. الأفكار القديمة تحت مجهر التفكير المنهجي.
4. الشك المنهجي للخروج من دوامة التضليل لا من أجل فوضى الأفكار.
5. طرق الخروج من حالة الشك المنهجي.
6. من إحكام قيادة العقل إلى إحكام رؤية العالم.
7. الحقيقة وحدها لا تكفي.

الفصل الأول

الشك المنهجي
وتأسيس عصر ديني جديد

1- نقطة البدء في افتتاح عصر ديني جديد

«الشك المنهجي» هو سنة أبي الأنبياء إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولولاه لما وصل إلى الحقيقة، عندما شك في عقائد قومه في الأوثان والكواكب والنجوم، وفق مراحل في «الاستدلال العقلي» ذكرتها سورة الأنعام: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام: 76 - 79].

هذا «الشك المنهجي» الذي يتخذ من الشك العقلي منهجًا للوصول إلى «الحقائق الواضحة والمتميزة»، هو ما قامت عليه الفلسفة الديكارتية التي افتتحت مع فلسفات وحركات علمية وفنية أخرى العصر الحديث الذي ودعت فيه أوروبا عالم العصور الوسطى.

فالمشكلة التي واجهها أبو الأنبياء في عصره كانت مشكلة التقليد والاتباع الأعمى للآباء وكبار القوم؛ ومنهجهم القائم على اليقين المطلق بصحة أقوال السابقين وسدنة الدين والتاريخ. والمشكلة التي واجهها ديكارت وعصره هي أيضًا سيادة أقوال الكهنة وتفسيرهم الأحادي للكتاب المقدس.

هنا رفض إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إسكات عقله، وهناك رفض ديكارت ورفاق عصره إسكات عقولهم. مع إبراهيم بدأ دين جديد يرفض التقليد، ومع ديكارت ورفاق عصره تم الشروع في تأسيس عصر جديد وخطاب ديني جديد تراجع فيه لاهوت العصور الوسطى الذي كان يحتكر فيه رجال الدين في أوروبا الحقيقة الواحدة والنهائية.

قام قوم إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بحرقه لكنه نجا بمعجزة، وقام كهنة العصور الوسطى بإقامة محاكم التفتيش حيث كل وسائل القتل والتعذيب. وعلى الرغم من هذا العنف الشامل والشرس مع إبراهيم ومع طلائع الحداثة في أوروبا، فقد انتصرت دعوة العقل والتوحيد مع إبراهيم، وانتصرت أفكار الحداثة في أوروبا.

لكن لماذا نركز الضوء على إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ونقارن بينه وبين ديكارت؟ وهل هذه تسوية في القيمة والمنزلة بينهما؟ نركز الضوء على إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لأنه أبو الأنبياء، وهو نبي الحنفية السمحة تلك الملة التي نؤمن بها ﴿مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: 135]، وهي ملة العقل والتوحيد ضد التعصب والتقليد وإشراك بشر أو أوثان مع الله، ونحن أولى بإبراهيم ذلك النبي الذي حدثنا عنه القرآن الكريم: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ

﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ١٢١ وَءَاتَيْنَٰهُ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْأَخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ
١٢٢ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾
[النحل: 20 - 23].

لقد استخدم أبو الأنبياء عقله، فمر بمرحلة شك ضرورية امتدحها القرآن الكريم، ومنها وصل إلى رفض القديم، فالشك المنهجي ضروري للإيمان المنضبط، والشك المنهجي ضروري للعلم، والشك المنهجي ضروري لتأسيس خطاب ديني جديد في كل العصور. وليست وظيفة الفكر الخروج من الشك إلى اليقين فقط، ولكن أسمى وظائفه هي التفكر والتدبر و إخضاع كل شيء للفحص العقلي، إن الدعوة للتفكر و إعمال العقل دعوة قرآنية أصيلة في مقابل العقل الجامد الحاضن لنصوص القدماء والمفسر لها تفسيرًا حرفيًّا بعيدًا عن الواقع المتجدد، وبعيدًا عن النظر في الآفاق وفي الأنفس وفي الكتاب. ونحن لا نسوي بين أبي الأنبياء وبين أبي الفلسفة الحديثة، بحكم الإيمان، وبحكم الفرق بين حجم أثر الأول وأثر الثاني، وبحكم الفرق بين نبي وفيلسوف، والمسألة لا تعدو فقط محاولة الإجابة عن سؤال الأسئلة:

كيف يتم افتتاح عصر جديد؟

وهذه الإجابة نحتاجها اليوم، ليس فقط لدحر التطرف، ولكن لأننا فعلًا في أمسّ الحاجة لافتتاح عصر حداثة جديد في الشرق. وربما يتساءل القارئ أيضًا: لماذا نستحضر ديكارت، ولا نستحضر هنا كل طلائع الحداثة من المفكرين والعلماء ومجددي الفكر الديني؟ هل نرد ظاهرة الحداثة إلى علة واحدة؟ بطبيعة الحال لا. وربما نستعرض جهود أهم مفكري أوروبا في الانتقال من خطاب العصور الوسطى النقلي إلى خطاب العصور الحديثة

العقـلي، في كتابـات قادمة، لا لنقلد أوروبـا، فنناقض أنفسـنا في نبذ التقليد سـواء لآبائنا أو آباء غيرنا، ولكـن لنتأمل ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۚ﴾ [الأحـزاب: 38] كما يقـول القرآن، وَنأخذ - أيضًا كـما يقول القرآن - ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ﴾ [البقـرة: 214]. وهذا ليس فقـط إعمالًا لعقولنا، ولكنه أيضًـا تنفيذ لدعـوة القرآن في التعقـل والسـير في الأرض - بأقدامنا أو بعقلنا - لـنرى ما النتيجـة التي وصل إليهـا غيرنا، يقول تعـالى: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [يوسف: 109].

إن الحداثة نتاج جهود ضخمة ومتعددة في الغرب كله، لكن ميزة ديكارت أنـه اختـزل كل التيـارات الصاعدة والفلسـفات الجديدة في عبـارة واحدة أعطـت مفتاحًا جديدًا لعـصر جديد هو عصر العقل، هـل تعلم - عزيزي القـارئ - ما هذه العبـارة التي لخصت الفكرة الافتتاحية التأسيسـية للعصر الجديد في الغرب؟

2- الذات المفكرة

إن افتتـاح عصر جديد هـو نتاج جهود ضخمة ومتعـددة في الغرب كله كما انتهينا في الموضوع السابق، لكن ميزة ديكارت أنه اختزل كل التيارات الصاعـدة والأفـكار الجديدة في عبارة واحدة أعطـت مفتاحًا جديدًا لعصر جديد هو عصر العقل.

والعبـارة التي لخصت الفكرة الافتتاحية للعـصر الجديد في الغرب، هي: «أنـا أفكر، إذن أنا موجود». ونحن بحاجة لهذه العبارة لا لنزين بها كلماتنا

وخطبنا، ولكن لتكون مفتاحًا لخطاب جديد يستعيد دعوةَ إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ والأمرَ القرآني الراسخ لإعمال العقل في كل ما حولنا (ملكوت السموات والأرض)؛ والسموات هنا ليست ذلك الفضاء بمجراته ونجومه وأقماره فقط، بل أيضًا السموات بوصفها مقدسًا ورمزًا لكل ما هو إلهي، والأرض هنا ليست ذلك الكوكب الذي يدور حول الشمس فقط، بل أيضًا الأرض التي هي رمز للحياة الدنيا. ومن دون إعادة النظر في هذا الملكوت السماوي الأرضي لا يمكن لنا أن نصل إلى خطاب ديني جديد نفتتح به عصر حداثتنا الذي لم يأتِ بعدُ. ومن ثَمَّ فالتجديد لا يأتي إلا بالنظر في العالم (ملكوت السموات والأرض)، وليس بإعادة اجترار موروث يعبر عن عصور لم نعشْها ولم نُخلَق لها.

إن هذه الفكرة المفتاحية «أنا أفكر» هي ما يسميه مؤرخو الأفكار «الكوجيتو الديكارتي»، ويوحي هذا الكوجيتو بأن «الفكر» له الأسبقية المنطقية في الخروج من الشك والوهم إلى المعرفة الصحيحة والمنضبطة. إنها كما يقول ديكارت: «أهم وأوثق معرفة تعرض لمن يدير أفكاره بترتيب» (ديكارت، مبادئ الفلسفة: ص 56). إن المعرفة المنضبطة لا بد أن تكون نتيجةً طبيعيةً لكل من يُعمل عقله بمنهج دقيق طبقًا لمعايير موزونة.

وكان الشك المنهجي هو الأساس الركين الذي توصل منه ديكارت إلى «الذاتية الإنسانية الفردية العاقلة» التي صارت أساس كل تجديد، ونقطة جوهرية في إعادة بناء عصر جديد، تلك الذات التي تأسست على «أنا أفكر»، والتي اختصرت مطلع العصر كله واختصرت منهج ديكارت، وتلخص أساس تحمل الإنسان للمسئولية والتكليف في الإسلام. ولا أريد هنا

أن أقف عند مذهب ديكارت في ما بعد الطبيعة، فهذا المذهب - و يا للمفارقة - لاهو تي على العكس من منهجه العقلي، وقد سبق في كتابي «أقنعة ديكارت العقلانية تتساقط» أن أوضحت لاهوتية ديكارت في المذهب، وكيف أن عقلانيته في كتابه «المقال في المنهج» تحولت في «المذهب» إلى أقنعة يداري بها اتجاهاته اللاهوتية التي ظهرت في كتبه الأخرى مثل «مبادئ الفلسفة». ويجب أن نميز بين منهج ديكارت العقلاني، وبين مذهبه غير العقلاني في جوانب كثيرة، والمنهج هو «خطوات التفكير الصحيحة من أجل الوصول إلى الحقيقة»، أما المذهب فهو «مجموعة الآراء والأفكار التي يقدمها المفكر عن العالم والإنسان والله». والمنهج الذي اقترحه ديكارت لا شك أنه منهج عقلاني، لكنه في الواقع الفعلي لم يطبِّق هذا المنهج بشكل كامل على مذهبه. فهناك جوانب في آرائه عن الله والعالم والإنسان تشتمل على عناصر غير عقلانية.

ومع هذا النقد الشديد الذي وجهته إلى ديكارت في المذهب، فلا يمكن إنكار ريادته في «المنهج» وفضله على العصر الحديث. كما أن الأقنعة العقلية التي تقنّع بها في المذهب، كان لها أثر إيجابي للغاية في التأثير على الخطاب الديني على الرغم من أنها مجرد أقنعة؛ حيث كان من حسن حظ الحداثة أنها فهمت القناع على أنه الوجه الحقيقي؛ ومن ثم أخذت تُمعن في استخدام العقل! لكن لنكن نحن أكثر جذرية، ونعول على عقلانية المنهج، وندع المذهب وشأنه فقد أشبعناه نقدًا في كتابنا «أقنعة ديكارت»، في الوقت الذي انتصرنا فيه للمنهج. فديكارت يصيب ويخطئ مثل أي بشر، لكن يظل المنهج من أهم منجزاته ذات الأثر في العصر الحديث.

إن هــذا المنهــج هو ما بقي من ديــكارت حتى اليوم، وهــو ما نحتاج إلى إعماله في حياتنا، أقول هذا على الرغم من أني أعي أن العقلانية الآن أصبحت أكثر نضجًا وتطـورًا، وقد تجاوزت مناهجها ديكارت في كثير من الجوانب. ومن أسـف نحن ترجمنا ديــكارت إلى لغتنا لكننا لم نســتفد من عقلانيته إلا النذر اليسير، ولم نفتح نوافذنا لضوء كافٍ من أضواء العقلانية الحديثة.

والمبدأ «أنـا أفكر، إذن أنا موجود»، لم يصل إليــه ديكارت اعتباطًا، بل هو نتيجة تجربة «الشــك المنهجي» التي مر بها. وحتى تكون الصورة أكثر اتضاحًا أمام القارئ، فإن ديكارت شك، واستنبط من هذا الشك أنه يفكر؛ لأن الشك يعني أن هناك كائنًا يفكر، وهذا يعني بالضرورة أنه موجود، وهذه أول حقيقة يصل إليها ديكارت ومنها يســتنبط سائر الحقائق: «وجود الله»، ثم «وجود العالم» (حســب ظاهر منهجه لا حسب مذهبه الذي كشفنا عن لاهوتيته الباطنة في كتاب أكاديمي).

ومـا يعنينا هنا هــو منهجه فقط الذي يقوم على «الشــك المنهجي»؛ لأنه أكبر خطوة على طريق الحداثة على الرغم من أن ديكارت نفسه لم يستثمره لا في الديــن ولا في السياســة، لكنــه كان خطــوة ضرورية جـاء بعدها من المفكريــن من وظفــوه في تكوين خطاب ديني جديــد، وأيضًا من وظفوه في تجديد الخطاب السياسي.

3- الأفكار القديمة تحت مجهر التفكير المنهجي

ميــزة أبي الأنبيــاء إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أنــه - قبل أن يأتيــه الوحي الإلهي - مــارس التفكير المنهجي، ورفض الواقع القديم بنــاءً على هذا التفكير، لكنه

لم يكتفِ بهذا مثل التفكيكين والشكاك الجذريين وطائفة من الثوريين الذين لا يملكون سوى الثورة على واقع موجود لا تأسيس واقع جديد، ولا يستطيعون إلا الرفض والهدم، لكنهم غير قادرين على بناء واقع بديل، فيكون ضررهم أكثر من نفعهم، بل انطلق عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بعد الشك المنهجي وهدم القديم، إلى اليقين وبناء واقع جديد.

وكانت الصعوبة كبيرة في المرحلتين: مرحلة الثورة على الواقع القديم، ومرحلة بناء واقع جديد.

والواقع القديم كان صعبًا في زمن إبراهيم، وكان معقدًا في زمن ديكارت. وفي حالة ديكارت نجده درس العلوم الموروثة، ووجد تنازعًا كبيرًا وتناقضات لا حصر لها، وهناك كهنوت وعقائد كنسية مسيطرة، وفرق تعيش في أجواء العصور الوسطى المظلمة، وتيارات متصارعة، وعدد كبير من الفلسفات المختلفة بعدد الفلاسفة، واختلاط بين الأوهام والعقائد والمعارف العلمية.

ووجد ديكارت صعوبة التمييز، فأراد أن يخرج من هذه الحالة المضطربة، وأن يحل التناقض، ويصل إلى المعارف الواضحة والمتميزة من بين هذا الركام الضخم المتلاطم من الأفكار والعقائد في عقله، وهنا سأل نفسه: ماذا لو لدينا «سلة تفاح» مليئة بالتفاح السليم والفاسد؟ أليست تفاحة واحدة فاسدة تستطيع إفساد سلة التفاح كاملة؟ أليست أفضل طريقة للتخلص من التفاح الفاسد هو إخراج كل التفاح من السلة، ثم فحص كل التفاح - تفاحةً تلو الأخرى - ولا نعيد أية تفاحة منها مرة أخرى إلى السلة إلا إذا تيقنّا من أنها سليمة تمامًا؟

وكانـت الإجابة: نعم. ومن هنـا كان لا بد من طرح كل الأفكار القديمة التي تحشـو عقلنا خارج هذا العقل، ثم اختبار وفحص كل فكرة من البداية إلى النهاية حتى نتأكد من سلامة كل فكرة .. الواحدة بعد الأخرى. ولا نقبل بعد ذلك إلا الأفكار الواضحة والمتميزة التي قام البرهان على سلامتها كليةً.

ومما سـاعد ديكارت على الشك في كل الأفكار هو افتراض أنه قد يوجد شيطان خبيث ذو قدرة يخدع البشر بتعمد وبشكل منتظم، ونتيجةً لذلك قد لا نفْهَم الكون وأجزاءَه بصورة واضحة، ولا يمكن لنا أن نكون على يقين من المعارف التي نتوصل لها. يقول ديكارت: «سـوف أفترض عندئذٍ - ولا أقصد هنـا اللـه الذي هو الخير الأسـمى وينبـوع الحقيقة - وجودَ شـيطان خبيث يتمتع بالنفوذ والخداع قد حشـد كل طاقاته لخداعي» (ديكارت، تأملات في الفلسفة الأولى).

وإذا كان ديكارت افترض وجود شـيطان يتلاعـب بعقله، فهو يعني ذلك «الكائن الغيبي المخادع المضلل»، أما في عصرنا فربما يكون هذا الشيطان هو «إنسان يزعم امتلاك الحقيقة المطلقة» ويستطيع أن يخدع ويتلاعب بالعقول بما يملك من «كاريزما» أو أدوات «سـحر العقول»، لا سيما مع عقول تربت عـلى الحفظ والتلقين، والعلم عندها هو حفـظ المعلومات وليس إنتاج العلم، والحكم على الناس عندها بالظاهر و«الخَنفة» والتشدق بالألفاظ، وهي عقول رسـخت فيها أفكار غير قابلة للحذف أو التعديل بسـبب «ماكينة التفكير» التي لم تعرف يومًا طرق التفكير الدقيق! وربما يكون ذلك الشيطان الخبيث الـذي يتمتع بالنفوذ والخداع ويحشـد كل طاقاته لخداعنا في عصرنا هو الآلة الإعلامية الضخمة التي يتحكم فيها المال الأجنبي فيُمكنها أن تسقط شعوبًا

ودولًا! ومن هنا فيجب ألا نصدق كل ما نسمع أو حتى نشاهد؛ فالتلاعب الشيطاني لا يمارسه إبليس فقط، بل انضمت إليه جوقة طويلة.

وقد طرح «ديكارت» افتراضه عن وجود شيطان ماكر بعد مناقشاته الثلاث الأخرى المهمة حول شك البشر في معتقداتهم (أي غياب الثقة، وإمكانية الحلم، وإمكانية وقوع الخطأ عند استخدام التفكير الرياضي)، ووصل بالشك المنهجي إلى أبعد الحدود. ويشير ديكارت في نظريته الجذرية إلى ضرورة «الشك في كل ما يمكن الشك فيه»، كما يرى أن المعتقد الوحيد الذي ينجو من مكر الشيطان هو وعي الإنسان بوجوده الحالي، وهنا قال قولته الشهيرة: «أنا أشك، إذن أنا أفكر، إذن أنا موجود (cogito ergo sum)»، والتي تُعَدّ نقطة البداية لثبوت المعرفة.

فهل يمكن أن نخرج كل التفاح (=الأفكار) من السلة (=العقل)، ثم نعيد فحص الفكرة الواحدة تلو الأخرى؟ ولا نعيد أية فكرة منها مرة أخرى إلى عقلنا إلا تلك التي قام البرهان على سلامتها كليةً؟

أليس إعمال العقل النقدي دعوة قرآنية أصيلة في مقابل العقل الجامد الحاضن لنصوص القدماء والمفسر لها حرفيًّا بعيدًا عن الواقع المتجدد وبعيدًا عن النظر في الآفاق وفي الأنفس وفي الكتاب؟

هل يمكن أن نقوم لله مثنى وفرادى ثم نتفكر؟

هل يمكن أن يكون التفكير المنهجي فرض عين على كل فرد بذاته في استجابة سريعة وفورية لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ﴾ [سبأ: 46]؟

أزعم أنه من دون ذلك لا يمكن أن نبدأ عصرًا دينيًّا جديدًا.

4- الشك المنهجي للخروج من دوامة التضليل لا من أجل فوضى الأفكار

إن التفكير المنهجي الذي يتبعه ديكارت هو من أجل الهروب من دوامة الخداع والتضليل أيًّا كان احتمال مصدرها، وهو يشك في القديم ليبحث عن يقين جديد، ولذا فإن الشك المنهجي ليس شكًّا مطلقًا من أجل التشكيك المغرِض، واللاأدرية المعرفية، وفوضى الأفكار، وفوضى الواقع، بل كل ما يطلبه هو الدليل الرصين الحاسم ضد منظومة فكرية راسخة في بنية تضليلية متكاملة الأركان! ومن هنا فهو ليس شكًّا مَرضيًّا، ولا شكًّا فوضويًّا، وليس ترددًا بين نقيضين لا ترجيح لأحدهما على الآخر. إنه فحسب خطوة على «طريق» نحو الحقيقة القائمة على الأفكار الواضحة والمتميزة لا على أقوال القدماء ولا سلطة قياس الحاضر على الماضي.

ويجب عدم الخَلْط بين الشك المنهجي والإلحاد؛ فالإلحاد خاص بإنكار العقيدة الدينية، وموقف الملحد هو موقف المنكر بيقين لا موقف المتشكك الباحث عن البرهان المبين. ومن المعروف أن الشك على أنواع؛ أشهرها الشك المذهبي أو المطلق، وهو شك عقيم مرفوض قال به المذهب الشَّكِّي Skepticism، ويتخذ أنصاره الشك منهجًا في التفكير ومذهبًا فلسفيًّا في الحياة؛ فهم يؤكدون عدم إمكانية معرفة حقيقة الأشياء كلها؛ ويؤكدون عجز العقل الإنساني عن معرفة أي أمْرٍ مهما صَغُر معرفة يقينية؛ لأن الحواس عاجزة ولا تقدم لنا الحقيقة، بل المظهر فقط، والحواس غير متفقة فيما بينها في الحكم على الأشياء، وفي أحيان كثيرة تقدم لنا الكبير على أنه صغير مثل الشمس والقمر.

ويختلف الشك المنهجي بوصفه خطوة علمية عن الشك المطلق؛ فالأول مؤقت وهو وسيلة لا غاية؛ لأنه ربما يعقبه التوصل إلى الحقائق، والثاني دائم وتام ودائرة مغلقة. وقديمًا استخدم سقراط وأرسطو - من أجل الوصول إلى المعرفة - نوعًا قريبًا منه في دَحْض شبهات السوفسطائيين القائلة بالنسبية المطلقة.

واستخدم الشك المنهجي كبار المفكرين الدينيين، مثل القديس أوغسطين (ت 430م) الذي مر بمرحلة شكية قبل أن يصل إلى منظومة دينية جديدة بمقاييس عصره.

ويُعد «أبو حامد الغزالي» نموذج الشك المنهجي في الحضارة الإسلامية في كتابه»المنقذ من الضلال»؛ لأنه حدد معالمه، وعايش تجربته كاملة معايشة واقعية، على نحو مؤقت، ثم وصل إلى اليقين على طريقته. وقد سبقت مرحلةُ «الشك المنهجي» عند الغزالي مرحلةَ «إحياء علوم الدين»، وكأن الشك المنهجي مرحلة ضرورية تسبق الوصول إلى مرحلة التجديد، وكأن عنوان هذا الفصل يطل من جديد في متنه (الشك المنهجي وتأسيس عصر ديني جديد).

وفي عصر النهضة الأوروبية كان من أبرز دعاة الشك: الفيلسوف الفرنسي «مونتاني» Montaigne (1533 - 1592م)، وكان له دور في زعزعة اللاهوت والكهنوت. وفي القرن السابع عشر، جاء ديكارت، والشك عنده منهجي وليس مذهبيًّا، والشك المنهجي الديكارتي على مستوى المنهج كان شاملًا، لكنه على مستوى المذهب استثنى ما يشاء (الدين المسيحي، الأخلاق، النظام السياسي)، وهنا إحدى نقاط ضعف مذهب ديكارت. ومن قبل الفلاسفة جميعًا استخدمه أبو الأنبياء ضد عقائد قومه حتى تظهر معالم عصر ديني جديد.

ويمكن القول: إن الشك المنهجي موقف علمي رصين، بينما الشك المطلق

موقـف متهافت هـش يعجز عن تكوين معرفة علميـة، ويعكس حالة من التدهور العامة في التفكير. ويمكن بيان تهافُت حُجَج الشكية الجذرية بكل سـهولة، لكن يكفي في هذا السياق بيان التناقض الجوهري في أساس موقفها العام؛ ومن ثَم فإن إظهار هذا التناقض يهدم كل الحجج الشَّكِّية المبنية عليه، ومن ثَم تنهار الفلسـفة الشَّـكِّية كلها. ويتمثل هذا التناقض الجوهري في أن الشكاك الجذريين «موقنون» من أن الإنسان لا يمكن أن يصل إلى علم يقيني. والتناقض هنا «أنهم موقنون» من سـلامة موقفهم الشـكي من إنكار المعارف اليقينيـة؛ مع أن موقفهم هذا ينطوي على معرفـة يقينية بعدم يقينية المعرفة! فهـم يعتبرون موقفهم الشـكي «يقينيًّا» على الرغم مـن أنهم ينكرون المعرفة اليقينية! (أزعم أن هذه حجة جديدة ضد الشكية الجذرية).

وليـس معـنى هـذا النقد في تصـوري أن القـرآن يرفض الشـك بـكل أنواعه ومستوياته، إنه يرفض فقط الشك بصفته مذهبًا شاملًا ومتكاملًا وجذريًّا، لكنه يدعو إلى الشـك المنهجي بصفته مرحلة من مراحل التفكير من أجل الوصول إلى الحقيقة. ويتجلَّى هذا بوضوح في عرض القرآن الكريم لقصة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

إذن لا يوجـد في الشـك المنهجـي أي تثريب في القـرآن الكريم على مَن يفعله، بل هو موضع تبجيل وتقدير شديدين باعتبار ذلك خطوة على طريق موصل إلى الحقائق؛ حتى لا يظل الإنسان مغفلًا أو غافلًا. ولست بحاجة إلى أن أذهب بعيـدًا؛ فالقرآن واضح جدًّا ومباشر في هذا الأمر، أليس هو كتابًا جاء بلِسَـان عَرَبِيّ مُبين؟ ألم يقل الله عنه: ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ﴾ [المائدة: 15]؟

فـما هو إذن هذا الموقف المبين الذي أوضحه القرآن الكريم من التفكير

المنهجي. ولماذا يعد الشك في القديم إحدى خطواته الضرورية التي تسبق الخطاب الديني الجديد؟

5- طرق الخروج من حالة الشك المنهجي

في التفكير الديني المنضبط الذي يلح عليه القرآن الكريم، وأيضًا في التفكير العلمي الدقيق الذي تقدمه لنا مناهج البحث العلمي، يكون الخروج من حالة الشك المنهجي، بدليل عقلي برهاني أو بدليل استدلالي تجريبي أو سلطان حسي مبين، وليس بقول «ولي» أو «داعية» أو «أمير جماعة».

مرة أخرى نجد أمامنا تجربة أبي الأنبياء إبراهيم في رفض وصاية البشر وفي عدم الاحتجاج إلا بدليل عقلي برهاني أو بدليل استدلالي تجريبي أو بسلطان مبين من الوحي أو الحس، فعندما أراد كبار القوم والكهنة فرض وصايتهم عليه، شككه عقله في معتقداتهم المستقرة، ورفض ذهنه رؤيتهم للعالم التي تنسب العلل إلى غير مصدرها، ولم يستطع أن يهضم فكرة الأصنام أو تأليه مظاهر الطبيعة أو تأليه البشر أو الحاكم.

لكنه لم يقف عند هذا الشك على أنه أمر نهائي، مثل أتباع مذهب الشك في العصر الهيلينستي، وإنما واصل السَّعْي نحو الحقيقة، وبالفِعْل وصل إليها حينما أدرك أن هناك إلهًا واحدًا لا شريك له، منزهًّا عن كل ما لا يليق بجلاله وعظيم سلطانه.

فالتفكير المنهجي في القرآن الكريم فرض عين، والخطأ يظهر زيفه بإعمال العقل والاستناد إلى دليل يقيني من الوحي أو الواقع الخارجي، وليس بسلطة الماضي ولا سلطة الكهنة ولا الظواهر الصوتية التي تنعق ليل نهار.

انظر كيف يتحدث القرآن ولا تزد عليه شيئًا من عندك أو من عند الكهنة:

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَٰفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام: 74 - 83].

لاحظ هنا ديالكتيك العقل والاستدلال التجريبي وهداية الوحي، ولا تدخل في جدال عقيم مثل ذلك الجدال الذي صنعه بعض علماء الدين وبعض فلاسفة العصور الوسطى: مَن قبل مَن: الوحي أم العقل؟ الفرخة أم البيضة؟!

إنه ديالكتيك متفاعل متبادل ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: 69]، ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ

﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: 144].
وفي الحديث القدسي: «مَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْرًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعًا، وَمَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا، وَمَنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً» (حديث صحيح رواه البخاري ومسلم وغيرهما مع اختلاف في اللفظ).

المهم أن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ شك في عقائد قومه، وتوصل إلى عقيدة التوحيد الإلهي، ومن معاني التوحيد عدم إشراك أحد مع الله في علاقتي به، فعلاقتي به مباشرة دون وسيط من بشر أو كهنوت أو غيرهما، وهو وحده الذي يملك الحقيقة المطلقة، وهو وحده الذي يفصل بين عباده. ومن هذه العقيدة التوحيدية الخالصة يخرج تصور كامل للعالم، بعيدًا عن الرؤية السحرية أو الخرافية أو الشركية بكل أنواعها، فليس الشرك فقط هو عبادة غير الله من أصنام أو أوثان أو بشر أو ظواهر طبيعية، بل الشرك أيضًا أن أضع الكهنة وسطاء بيني وبين الله تعالى، أو بيني وبين الحق والحقيقة؛ فالله هو الحق وكتابه هو الحقيقة.

وتحرير الإيمان من الشرك يستلزم رفض الوسطاء، وهنا يكمن أحد أهم مداخل تكوين خطاب ديني جديد. فلقد رفض إبراهيم سلطة الكهنة والمتحدثين باسم الألوهية، وهنا وجد الحقيقة الإلهية وجهًا لوجه. وبعد أن وصل إلى حقيقة "وجود" الله عن طريق ديالكتيك التفكير المنهجي، والهداية الإلهية، والشك في عقائد قومه ورؤيتهم للعالم، ونظره في الوقائع الخارجية التجريبية، بقيت عنده مسألة قدرة هذا الإله سبحانه، يقص القرآن ذلك بوضوح:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِن

لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ قَالَ فَخُذۡ أَرۡبَعَةٗ مِّنَ ٱلطَّيۡرِ فَصُرۡهُنَّ إِلَيۡكَ ثُمَّ ٱجۡعَلۡ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٖ مِّنۡهُنَّ جُزۡءٗا ثُمَّ ٱدۡعُهُنَّ يَأۡتِينَكَ سَعۡيٗاۚ وَٱعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾ [البقرة: 260].

انظر كيف يريد إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أن يؤسس إيمانه على يقين تجريبي، وانظر إلى أتباع دعاة الضلال والتضليل الآن: كيف يأخذون من زعمائهم أخذ التسليم المطلق دون تمحيص ودون مناقشة؛ فالمسألة عندهم مسألة ثقة عمياء، ومسألة عصبية فكرية، فالعصبية تحولت معهم من عصبية الدم والقبيلة إلى عصبية الأيديولوجية والجماعة!.

6- من إحكام قيادة العقل إلى إحكام رؤية العالم

لا تكمن عظمة دعوة إبراهيم فقط في «العقائد» التي آمنت بها ودعت إليها، وإنما أيضًا في «طريقة البحث» عن الحقيقة، ومن دون «منهج» إحكام قيادة العقل الذي اتبعه عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لم يكن ممكنًا الوصول إلى تلك «الرؤية للعالم».

كيف؟

من أكثر الأمور الجاذبة لي في إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أنه صاحب عقل منضبط، لا يؤمن إلا بدليل من الوقائع الخارجية التجريبية، مثل حالة: ﴿ قَالَ فَخُذۡ أَرۡبَعَةٗ مِّنَ ٱلطَّيۡرِ فَصُرۡهُنَّ إِلَيۡكَ ثُمَّ ٱجۡعَلۡ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٖ مِّنۡهُنَّ جُزۡءٗا ثُمَّ ٱدۡعُهُنَّ يَأۡتِينَكَ سَعۡيٗاۚ ﴾ [البقرة: 260]، أو بدليل من الاستدلال العقلي المسنود بالتدبر في الظواهر الكونية: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴾ [الأنعام: 75]، أو بحجة عقلية خالصة:

﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنبياء: 66 - 67].

أضف إلى ذلك قدرته على إبطال مغالطات أصحاب العقول العنكبوتية (ومثلهم كثير في عصرنا)، من أقصر طريق وفي كلمات قليلة. وهذا نجده، علاوة على ما سبق من حججه ضد قومه، في ذلك النقاش الذي دار بينه وبين ذلك الملك الواهم:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: 258].

انظر مرة أخرى إلى الفرق بين طرق الحجاج التي يوظفها إبراهيم ضد المغالطين، وطرق الحجاج التي ينتهجها المتحدثون زورًا باسم الحقيقة الإلهية في عصرنا، انظر كيف يُعمل إبراهيم أدوات ومناهج الاستدلال العقلي والتجريبي، وكيف يُعمل الواهمون في عصرنا أدوات ومناهج النقل غير الدقيق والحفظ والتسليم المطلق بأقوال السادة قادة «الحقيقة المطلقة»!

لقد رفض إبراهيم النقل والتقليد وهو في ريعان الشباب، وحاج قومه حجاجًا عقليًّا خالصًا، بينما ردوا عليه بحجاج نقلي موروث، إبراهيم يستند إلى البرهان العقلي وهم يستندون إلى البرهان النقلي، انظر قصته مرة أخرى من «كادر» مختلف يلتقطه القصص القرآني: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَـٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَـٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَـٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّـٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ

بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٥٦
وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ ٥٧ فَجَعَلَهُمۡ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرٗا
لَّهُمۡ لَعَلَّهُمۡ إِلَيۡهِ يَرۡجِعُونَ ٥٨ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ
٥٩ قَالُواْ سَمِعۡنَا فَتٗى يَذۡكُرُهُمۡ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبۡرَٰهِيمُ ٦٠ قَالُواْ فَأۡتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعۡيُنِ ٱلنَّاسِ
لَعَلَّهُمۡ يَشۡهَدُونَ ٦١ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ٦٢ قَالَ بَلۡ
فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ٦٣ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ
أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٦٤ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا
هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ٦٥ قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ
شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ٦٦ أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾
[الأنبياء: 52 - 67].

وهكذا فإن «منهج» أبي الأنبياء منهج منضبط. ومن أسف فإن الكثيرين يخلطون بين المنهج والمذهب، أو بين المنهج والعقيدة، ويقع في هذا عدد غير قليل من العلماء والمفكرين أنفسهم! ولذا لا بد أن نحدد المعنى الذي نقصده بالمنهج Method. المنهج عبارة عن «مجموعة من القواعد والفرضيات والإجراءات والأمثلة لتحديد مدى وحدود الموضوع وإنشاء طرق مقبولة للعمل ضمن هذه الحدود للوصول إلى الحقيقة truth»، أو بعبارة أبسط: «المنهج هو الطريقة التي نسير عليها وفق قواعد ومعايير للانتقال من المجهول إلى المعلوم ومن الشك إلى المعرفة». يقول ديكارت: «ما أقصده بكلمة (المنهج) هو تلك القواعد التي يُعَوَّل عليها ويسهل تطبيقها، وأنه في حال اتباع هذه القواعد بواسطة الفرد على نحو صحيح، فإن الفرد لن يقبل ما هو زائف على أنه صحيح، ولن يبدد جهوده الذهنية، بل سينجح في زيادة معارفه تدريجيًّا وباستمرار حتى يصل إلى فهم صحيح لكل شيء في نطاق قدرته».

فالمنهج ببساطة هو الوسيلة، هو الطريقة، هو الخطوات التي يجب أن يتبعها التفكير، هو القواعد التي يجب اتباعها للوصول إلى نتيجة صحيحة. إنه أسلوب الاستدلال، هو السنارة وليس السمكة، بل هو أكثر من السنارة؛ إنه الفن أو الطريقة التي تستخدم بها السنارة. ليس الطعام الجاهز الذي تأكله، ولا المواد التي صنع منها الطعام، ولكنه «طريقة» الصنع نفسها. ليس السيارة، ولكنه فن القيادة. معك سيارة رائعة ومع صديقك سيارة رائعة أيضًا، أنت تقود بفن وقواعد وخريطة سليمة للطريق في ذهنك فتصل إلى هدفك، وصديقك يقود برعونة أو بخريطة أو قواعد خاطئة فيضل الطريق.

والخلاصة: إذا أردنا أن نوصّف «منهج» أبي الأنبياء نجده قائمًا على شك منهجي في البداية، ثم استدلال عقلي محكم مستند إلى ظواهر كونية تارةً، ومستند إلى دليل من (وقائع تجريبية) تارةً أخرى، ومستند إلى حجة عقلية برهانية تارةً ثالثة، والوحي في كل مرة حاضر مثل الضوء الذي ينير الطريق أمام العقل والحواس والبصيرة.

لكل هذا لن ندخل عصرًا دينيًّا جديدًا من دون إصلاح مناهج التفكير لإحكام قيادة العقل نحو الصواب.

7- الحقيقة وحدها لا تكفي!

إن مشكلة اضطراب «الإدراك العام» عند جماعات التطرف غير منفصلة عن مشكلة الإدراك الديني، وغير منفصلة أيضًا عن مشكلة الإدراك السياسي، كلها محكومة بعقل «منفصل» عن الواقع! وفي أحيان كثيرة تحمل

عقلًا منفصلًا عن التاريخ وتجاربه، ولا تتدبره حتى في «الوحي الإلهي العظيم» الذين يزعمون اتباعه!.

وإذا أردنا تجديدًا دينيًا يحل «مشكلة الإدراك العام» ويرفع «العدسات المضللة» التي يرى العقل من خلالها، لا بد من تغيير «ماكينة التفكير» أولًا! لا بد من تعليم الناس ليس المعلومات الصحيحة فقط، ولكن أيضًا تعليمهم طريقة التفكير السليمة، وتدريس مناهج التفكير.

ومن الضرورة بمكان إعادة بناء المواد العلمية المختلفة: الرياضات، الفيزياء، الكيمياء، الأحياء... إلخ، على أساس: «كيف تم التوصل إلى الحقائق والنظريات؟»، وعلى أساس الشك العلمي المنهجي، وليس على أساس تلقين الطلاب الحقائق «جاهزة ومعلبة»! والأمر في تعليم العلم الرياضي والطبيعي هو نفسه الأمر في تعليم الدين والعلوم الشرعية؛ فالقرآن الكريم لم يعطنا الحقائق جاهزة، بل عللها، وحثنا على تعقلها وفق قواعد التفكير المنضبط، بل حثنا على اكتشافها بأنفسنا سواء في النفس أو في الأرض أو في الآفاق.

ومن نماذج الإيمان الدالة على هذا المعنى التي قدمها القرآن الكريم نموذج إبراهيم خليل الرحمن، فما من حقيقة كبرى في دعوته إلا ومعها «طرق التوصل إليها»!

فالحقيقة وحدها لا تكفي، بل لا بد من معرفة المنهج الذي أوصل إليها. والعلم ليس سوى المعلومات عند أهل الحفظ، أما أهل العلم فالعلم عندهم ليس المعلومات فقط، وإنما العلم هو المنهج، هو الطريقة، فالمنهج هو ما يصنع العلم وهو ما يصنع العلماء، وهذا هو ما نحتاجه ليس فقط لتأسيس عصر ديني جديد، بل كذلك لتأسيس عصر علمي جديد. ولذا تُدرس مناهج

التفكير الدقيق في كل مراحل التعليم في مقررات الدول المتقدمة، سواء بكونها جزءًا من كل علم، أو بكونها مقررًا منفصلًا.

ومع أن ديكارت صار قديمًا تجاوزته المناهج المعاصرة، لكن قواعد منهجه لا تزال عاملة كقواعد عامة ضمنية، فلا يزال التحليل خطوة لا يمكن للعلم أن يقفز عليها، وقل مثل ذلك في إعادة التركيب والمراجعة والإحصاء، وقبل ذلك كله ألا يقبل العقل إلا ما كان واضحًا ومتميزًا. وأيضًا على الرغم من أن دعوة إبراهيم موغلة في القدم، لكن الإسلام تضمنها وترجمها ترجمة صحيحة في العقول، فظهرت معه لتكون دعوة للتوحيد والتفكير والانضباط العقلي وإلوهية تَسَعُ العالَمِينَ. أما الجناح الآخر من نسل إبراهيم فقد ترجمها ترجمة خاطئة فتحولت معه إلى ديانة قبيلة بني إسرائيل، وعقيدة شعب الله المختار، وفي العصور الحديثة تحولت إلى صهيونية بغيضة.

إن المنهج عند ديكارت، ليس تجريبيًّا، لكن ميزته أنه يرفض التسليم - على الأقل في حدود المنهج وليس المذهب - بأقوال السابقين غير المبرهنة، مثله في ذلك مثل إبراهيم، ولا يقبل إلا ما كان واضحًا ومتميزًا، مثله في ذلك أيضًا مثل إبراهيم، ويقوم بتحليل الفكرة أو الأفكار، ويسير من البسيط إلى المركب، ثم يراجع كل ما قام به من خطوات سابقة حتى يتأكد أنه لم يخطئ وأنه لم يغفل شيئًا. ففي كتابه «مقال عن المنهج لإحكام قيادة العقل وللبحث عن الحقيقة في العلوم» يضع أربع قواعد يجب مراعاتها في كل منهج يبحث عن الحقيقة، وتكفي هذه القواعد، إذا ما تم اتباعها بدقة، للوصول إلى اليقين. وتُعرف هذه القواعد على التوالي باسم: البداهة، التحليل، التركيب، الإحصاء والمراجعة. ويحدد ديكارت مضمون هذه القواعد الأربع بقوله:

«الأول: ألّا أقبل شيئًا ما على أنه حق، ما لم أعرف يقينًا أنه كذلك، بمعنى أن أتجنب بعناية التهور، والسبق إلى الحكم قبل النظر، وألا أدخل في أحكامي إلا ما يتمثل أمام عقلي في جلاء وتميز، بحيث لا يكون لدي أي مجال لوضعه موضع الشك.

الثاني: أن أقسم كل موضوع من الموضوعات التي سأختبرها، إلى أجزاء على قدر المستطاع، على قدر ما تدعو الحاجة إلى حلها على خير الوجوه.

الثالث: أن أسير أفكاري بنظام، بادئًا بأبسط الأمور وأسهلها معرفة؛ كي أتدرج قليلًا حتى أصل إلى معرفة أكثرها تركيبًا، بل وأن أفرض ترتيبًا بين الأمور التي لا يسبق بعضها الآخر بالطبع.

والأخير: أن أعمل في كل الأحوال من الإحصاءات الكاملة والمراجعات الشاملة ما يجعلني على ثقة من أني لم أغفل شيئًا».

إن هذا المنهج أو القواعد العقلية لليقين يمكن تعريفها بوصفها أساسًا للتطور والحداثة و إنتاج معرفة علمية أدت إلى زعزعة عرش المعرفة اللاهوتية والكهنوت والأسرار التي يحتكرها سدنة الفكر الديني المزيف.

فالغرب لم يدخل العصور الحديثة إلا بعد أن تغيرت «ماكينة التفكير» التي يفكر بها البشر، أي تغيير المنهج، أي تغيير الطريقة والقواعد التي يعمل بواسطتها العقل ليس في المعامل فقط، ولكن أيضًا في الشارع والمؤسسات، من أسفل إلى أعلى، ومن أعلى إلى أسفل.

وليس هذا تراثًا غربيًّا خالصًا، بل هو تراث إنساني عام، وهو أيضًا تراث ديني تم رصده في دعوة أبي الأنبياء خليل الرحمن، واستمر مع محمد ﷺ.